الكشوف الجغرافية؛ دوافعها – حقيقتها

محمود شاكر

المكتب الإسلامي الطبعة الأولى ١٣٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته أما بعد: لقد كتب عن الكشوف الجغرافية كثيراً، كتب قديماً كما كتب حديثاً، ولكن هذه المعلومات لم تمكن سوى معلومات تقليدية تتحدث عن الكشوف وسيرها والطرق التي سلكتها والملاحين الذين قادوها، ثم تبحث في العوامل التي دعت إلى القيام بها، والنتائج التي أدت إليها، كل هذا حسب رأي أوربة وتخطيطها للموضوع، لا يختلف في ذلك قديم الكتابات عن حديثها غير ما تضيفه المعاصرة منها عن الكشوف التي تمت في الأيام الأخيرة للمناطق القطبية وارتياد البقاع المجهولة وسط الغابات الكثيفة أو الصحراوات المقفرة، هذا مع العلم أن كثيراً من الكتب وخاصة ما يتعلق منها بالرحلات أو الجغرافيين ما تتحدث عن الوصول إلى أمريكة قبل كولومب والأوربيين أو إلى رأس الرجاء الصالح قبل بارتلمي دياز والغربيين أو عن بحارة الاسبان والبرتغاليين الذين كانوا من المسلمين غير قادتهم الإيطاليين، ولكن هذه الأخبار تنقل نقلاً مجرداً، أو تعطي صفة الرواية والإخبار دون متابعة أو استنتاج وهذا لا يؤدي إلى شيء، ولا يصل بنا إلى نتيجة نتوخاها أو معرفة نبتغيها. ورغم تقديرنا إلى كل ما كتب، واعترافنا بفضل الذين اسهموا في هذه الموضوعات، فإن هذه المعلومات التي أوردوها إن بقيت كما هي، وكما أرادتها أوربة بالذات، فإننا سنبقى في مكاننا لا نتحرك، ولا نتقدم في كتابة تاريخنا بأنفسنا شيئاً، وسنبقى تبعاً لأوربة ومعلوماتها وتاريخها وكتاباتها، نقلد دون إدراك، ونأخذ من غير وضوح في الرؤية، ونحاضر من غير روية، ونتكلم من دون علم، ونكتب دون مناقشة، لا نختلف عن البدائيين إن لم نقل عن بعض أنواع الحيوان، إننا بحاجة إلى أن نناقش الفكرة قبل أخذها، ونمحص الموضوع قبل عرضه على مجتمعنا وقبل تقديمه لأبنائنا وأجيالنا.

إن الدوافع التي دفعت أوربة للقيام بما وصلت إليه لم تدرس بعد دراسة كافية من جميع جوانبها وخاصة التاريخية منها، إننا لم نزل نأخذ الجانب الاقتصادي ونهمل الجانب الديني الصليبي، وهذا الأمر هو الذي تؤكد عليه أوربة، إننا نريد أن نبحث هذا الجانب المهمل لنتأكد أو نؤكد أنه هو الأساس الذي دفع أوربة للقيام بما قامت بما وصلت إليه، وأن الجانب الاقتصادي قد نتج عنه، أو كان ظله أو الدواء الذي أخفت أوربة خلفه حقيقة وجودها خارج بلادها أو في مستعمراتها.

إن الدول الأوربية قد دفعت الاسبان والبرتغال لقتال المسلمين وأمدتهم بكل ما يحتاجون إليه حتى إن بحارتهم كانوا من غير أبنائهم، وكانت نتيجة ذلك الإمداد، وكانت نتيجة تلك المساعدة أن استطاع الإسبان والبرتغاليون – وا أسفاه – طرد المسلمين فعلاً من الأندلس وملا حقتهم في كل مكان، وكانت خطتهم تطويق المسلمين، وأثناء تنفيذ الخطة تمت معرفتهم لمناطق جديدة بالنسبة إليهم، فانطلقوا فيها، وأغرتهم بغناها، فانتقلوا من الحروب إلى جمع الثروة والتوسع في أراضٍ جديدة أو لازم أحدهما الآخر، وهذا ما أثار عليهم أصدقاء الأمس الذين حسدوهم في الاستعمار والتوسع، واتهموهم بترك المهمة الأساسية التي ساروا من أجلها، والتي تلقوا المساعدات الكبيرة في سبيل تنفيذها، وهي قتال المسلمين، ولكن المغريات قد عطفت بهم الطريق، وحولتهم من مهمتهم الأصلية بعض التحويل، لذلك قاموا ينافسونهم، فحصل التنافس الاستعماريالذي طغى عليه الجانب الاقتصادي ظاهرياً، وجعل عليه غطاءً رقيقاً لم يكشف بعد، وإن كانت رؤيته لمن يمعن النظر من أصحاب الأبصار حيث يمكن أن تظهر لشفافية الغطاء، وعندها يبدو الاستعمار في ثوب رجل دين نصراني يحمل الصليب، ويكشر عن أنيابه، يريد أعمالها لتمزيق المسلمين.

هذا الجانب الاقتصادي أو التنافس الاستعماري قد طغى في النهاية على صورة الاكتشافات وأظهر الاستعمار على أنه ظل له، وأنسى الكثيرين واقعه الحقيقي، فكتبوا عن الاستعمار وأثره على البلاد وأهدافه وغاياته والوسائل التي اتخذها، ولولا دعم الاستعمار للمبشرين وسياسته الواضحة في ذلك، تلك السياسة التي فتحت نافذة تشرف على حقيقة الاستعمار، فتكلم على خوف، وأوجز عن ضعف، فكانت صورة ناقصة غير كافية ولا وافية.

وكلما مرت الأيام كشفت عن حقائق أكثر وصور أوضح بحاجة لإضافة بعضها إلى بعض لتتكامل صورة الاستعمار الحقيقية في أذهان الناس، وعندئذٍ لا يرون إلا الصليبية بحقدها البشع، وأنيابها البارزة، وأعمالها الوحشية، وطمسها للحقائق، وإخفاء كل أثر لغيرها وخاصة إن كان أثراً إسلامياً، وقصر كل شيء علمي أو أثر فني وعلى أبنائها.

أمريكة التي وصلها المسلمون قبل كولومب، وأقاموا فيها ردحاً من الزمن يشيدون البناء، ويعملون لبناء الفكر، فجاءت أوربة باكتشافاتها تطمس هذه الحقيقة، وتزيل هذا الواقع بإبادتها الغادرة لهم هناك، وبجريمتها الوحشية بإزالة كل آثارهم هناك، وبحقدها الشديد بتشويه التاريخ وبالكذب الصريح، ولكن بدأت تظهر هذه الحقيقة من خلال بعض الآثار التي وجدت في بعض الخرائب التي فعلتها أيدي الصليبية وأصابع الحقد كما سيتبين ذلك في هذه الرسالة.

ومن هذا المنطلق رأيت أن أوضح بعض هذه المعاني بلا توسع ليستطيع الجميع قراءتها، ويتسنى لكل طالب حقيقة ومعرفتها، وليضع كل منصف يده على مفتاح الحقيقة يتلمسها، وينطلق منها، ويبدأ من أول الطريق يسير فيه يطلب المعرفة ويبحث عنها حتى يصل إلى الحق والصواب وهذا هو هدفنا ومبتغانا.

هذه الرسالة في الأصل موضوع محاضرة كنت ألقيتها فاقترح عليّ بعض من سمعها من أساتذة الجامعة والكليات أن أنشرها ليعم نفعها، فاستجبت لهذا الاقتراح راجياً أن أكون بهذا الرأي قد حققت ما أبغيه من الاستقلال في النظر والفكر فإن وفقت فذلك فضل الله، وإن أخطأت فعذري أني اجتهدت.

والله نسأل التوفيق وسداد الخطى وهو نعم المولى ونعم النصير.

١٠ ذي القعدة ١٣٩٢

إن الوقت الذي كانت تسطع فيه شمس المعرفة على ديار الإسلام، ويشع فيه العلم من هناك، وتتألق الحضارة الإسلامية، فترسل أشعتها إلى ما جاورها من أمصار لتلفهم بين جوانحها، وتنقذهم من الظلمات إلى النور، وتخلصهم من الجاهلية العمياء لتدخلهم إلى واقع الإسلام المنير، في هذا الوقت كانت أوربة تترنح في الجهل، وترزح تحت كابوس الظلم، وتستكين لنير الطغيان، وتخضع حانية الرأس للطواغيت الجهلة، وتخنع غامضة البصر عن نور الحق، وتقبع في عزلة عن كل تيار حضاري، فكان لا يرتفع مستوى البشر فيها إلى أدنى مستويات الجماعات البدائية اليوم التي ذاقت من أوربة الويلات منذ أو وقفت على أقدامها.

بدأت أوربة تنفض عن عيونها غبار الجهل الذي ورثته خلال قرون طويلة خلت بعد أن وصلت إلى بعض مناطقها أشعة الحضارة الإسلامية، فجلت بسناها تلك الأرجاء، واستفادت أوربة يقبس منها، فالأندلس وجنوب فرنسة وجنوب أيطالية وجزر البحر الأبيض المتوسط كلها كانت مراكز يشع منها النور والمعرفة على أوربة، ومنها كانت الحركات الأولى التي امتدت لتنفض غبار الجهل، وتخلع حجاب الظلم إضافة إلى ما استفادته أوربة من احتكاك بالمسلمين في الشرق سواء عن طريق الحروب الصليبية أم عن طريق التجارة الحرة التي سهل المسلمون دروبها لعل الخير يصل عن طريقها إلى بقية الشعوب. فالمسلم لا يريد للعالم إلا الخير.

لكن أوربة اليوم ترفض حقيقة الأمس، وتصر على أن أسباب نهضتها إنما يعود لذاتيتها ونشاط أبنائها، وتجعل من هروب عدد محدود من علماء الرومان الشرقيين في القسطنطينية عند فتحها على يد محمد الفاتح العثماني رحمه الله، والتجائهم إلى أوربة كان عاملاً رئيسياً من عوامل النهضة، كما تزعم أن اكتشافات جغرافية قام بها رجالها كانت أساس النهضة وسبب التقدم. فهي بهذا ترفض أن تدين بالفضل للحق، وتدعي أن نهضتها كانت ذاتية ومن أصول أوربية خالصة، وخاصة ما أسمته بالاكتشافات الجغرافية التي هي موضوع محاضرتنا.

لنبحث في هذه الاكتشافات – حسب رأي أوربة – وما الدوافع التي أدت إليها؟ وهل كانت اكتشافات فعلاً توصل إليها البشر أول مرة أم هي ادعاء أوربي وكان البشر على علم بها من قبل؟ ولما كانت أوربة قد سيطرت على العالم في حين مضى فقد فرضت عليه هذه المعلومات الخاطئة حتى أصبحت شبه حقيقة واقعة بين بقية سكان العالم.

تدعي أوربة أن الحافز لها في هذه الاكتشافات هو تجارة التوابل والحصول على المال، لكن هذا الادعاء لا يستند إلى حقيقة علمية، ولا يقبله تحليل صحيح، فقد كانت الدول التي تدعي هذه الاكتشافات – اسبانية والبرتغال – لا تزال أهم أجزائها الجنوبية في ظل الحكم الإسلامي، وكان شغل الاسبان والبرتغاليين الشاغل هو إخراج المسلمين من الأندلس، ومع هذا فقد وصل البرتغاليون رأس الرجاء الصالح في أقصى جنوب أفريقية وهم في غمرة الحروب مع المسلمين، إذن كان وصولهم لتنفيذ خطة حربية، فقد وصلوا قبل سقوط الأندلس بست سنوات. وكان الاسبان والبرتغاليون يلقون الدعم الأوربي، بل كانت أوربة كلها ورائهم، فهل يقبل والوضع هكذا أن يكون هم الاسبان والبرتغاليون الحصول على التوابل كما تدعي أوربة؟ هل يقبل إنسان أن همّ أوربة أثناء الحرب العالمية الثانية الحصول على مادة الفلفل أو الزنجبيل وهي مادة كمالية غير ضرورية؟ لو ادعى هذا مؤرخ لا عتبر مجنوناً. فهل نرضى بعد هذا زعم الأوربيين؟

وأما الحصول على المال فهل يسعى الإنسان وراء المال في مكان مجهول أو يبحث عنه في مكان لا يزال في عالم الخيال؟ إلا إذا كان هذا في الحلم أو جاء في أحدى الأساطير القديمة والخرافات الأوربية.

إن حقيقة الدوافع التي تكمن وراء وصول أوربة إلى ما وصلت إليه من اكتشافات جغرافية بالنسبة إليها إنما كانت الحروب الصليبية التي كانت ولا تزال يحمل التاريخ لنا صوراً منها، ولا يمكن بحث هذا الموضوع دون الرجوع إلى التاريخ قليلاً لنوضح ما غمض، ونظهر ما أخفته أصابع الحقد وأيادي التقليد.

في النصف الأول من القرن السابع الميلادي، وفي وسط الجزيرة العربية تكونت أمة العقيدة فكانت الفئة المؤمنة الأولى في تاريخنا هي التي عبثت بالقوى المادية واستهزأت بها، ولم يمض أكثر من ربع قرن تلقت فيه هذه الجماعة الدروس العلمية، حتى ألهبت القوى الكامنة في النفوس، فإذا بها تدك صروح الشر في أعظم قلعة له، وتدوس تحت أقدامها القوى المادية التي تحطمت أمامها معلنة الضعف الحقيقي، ومظهرة أن المادة لا يمكنها أن تقف

أمام الروح بأي شكل من الأشكال، وإذا بأضخم الحصون تنهد، وأعظم المعاقل تندك، وأكبر الجيوش تهزم، وأقوى الدول تخضع، وإذا بالقلوب القاسية تنفتح للإيمان، والعقول المتعطلة تتعطش للروح، وإذا بالقلوب القاسية تنفتح للإيمان، والعقول المتعطلة تتعطش للروح، وإذا بمجد الفرس ينتهي، وعز الروم يختفي، وتنعدم من الوجود كل قوة سوى هذه القوة المؤمنة التي أصبحت عملاقة العالم، تمده بالنور والإيمان، وتزوده بالقانون والأخلاق، ويستمد منها العدل والقيم، ويأخذ منها الأمر والتوجيه.

أما قوى الشر فقد هالها الأمر حيث طرقت جحافل الخير أبواب باريس، وسطع النور في جنوب فرنسا فاستنارت به بعض امناطق، ولكن ماذا تفعل قوى الشر أمام هذا الانطلاق السريع والتألق البديع؟ انتظرت وقد سكنت في جحورها وعادت إلى أوكارها، ولم تستطع أن تبدي حراكاً، فقد لاحظت شيئاً لم تعهده من قبل، ورأت قوة لم تكن تتوقع مثلها في بني البشر، فآثرت السكون والهدوء. يقول ابن الجوزي : (فلما جاء نبينا صلى الله عليه وسلم فقهر الملك ومنع الإلحاد أجمع جماعة من الثنوية، والمجوس والملحدين ومن دان بدين الفلاسفة المتقدمين فأعملوا آراءهم وقالوا : قد ثبت عندنا أن جميع الأنبياء كذبوا ومخرقوا ... وأعظم كل بلية علينا محمد ... والآن قد تشاغل أتباعه فمنهم مقبل على كسب الأموال ومنهم على تشييد البنيان ومنهم على الملاهي وعلماؤهم يتلاعبون ... وقد ضعفت بصائرهم فنحن نطمع في إبطال دينهم)[1].

خلف من بعد هؤلاء المؤمنين خلف أضاعوا الجهاد فاستكانوا، وانصرف بعضهم نحو العلم النظري بكليتهم، واتجه آخرون نحو العمل بشؤون دنياهم، وقد ظنوا أن في المادة التي حصلوا عليها دوام قوتهم وبقاء عزهم، فتوقف خط سيرهم نحو التقدم والاندفاع، ووقف خط النور لا يسير، ولم يشعر هذا الجيل بما يجب أن يشعر، فقد ورثوا الجاه الواسع، والوطن الشاسع، والمال الوفير، والخير الكثير، فلم يجدوا شاغلاً لوقتهم غير النزاع، ولفراغهم غير الضياع، فبدا الضعف ظاهراً جلياً، فتحركت قوى الشر من جديد، وظنت أن الوقت قد حان لها لتتحرك من مكانها، وتغير مواقعها، وتنقض على قوى الخير، علها تحصل على النصر، وفكرت وقدرت، ورأت أن الظرف موات لها في الأندلس أكثر من غيرها من بلاد المسلمين. فإن النزاع فيها أكثر وضوحاً، والخصام أكثر جلاء، وإنها تقع على أطراف بلاد الشام، فنجدتها صعبة، وبعد الشقة مع المشرق كبير، يضاف إلى أنها أقرب النقاط إلى أوربا التي استقطب فيها أعداء الإيمان قواهم، فجمعت الجموع، واستنفرت الحشود، ورمت بسهمها لتصل إلى غايتها، فإذا بها تسير نحو مصيرها المحتوم، وإذا الهزيمة المنكرة مؤكدة لها، إذ لا تزال في المسلمين بقية باقية من قوة، استطاعت أن ترد بها الأعداء، وتسحقهم في معركة الزلاقة الشهيرة عام ٤٧٩هـ - ١٠٨٦م أيام المرابطين في المغرب الذين قدموا لمساعدة إخوانهم في الأندلس، ثم أعادت أوربا أوربا الكرة أيام الموحدين، فأعادوا تقديم المساعدة، وعادت أوربا بالهزيمة المنكرة والخسران المبين.

خاب أمل القوى المادية في الأندلس من النصر، ولكنها ظنت إن كان قد خاب هناك فسيظهر في المشرق، حيث المجال الواسع، والأفق الرحب، وإذا تم هناك النصر حيث مهد الإسلام فقد انتهى الأمر، وكانت الحروب الصليبية، حيث اتجهت جموع نحو الشرق لا حصر لها، وأعداد لا تعرف النظام، تسير كالسوائم، تهلك الزرع والضرع، وتحرق الأخضر واليابس، لا يحركها إلا هواها، ولا يقودها إلا حقدها، وأكابر مجرميها، فأخافت السكان الآمنين الذين تركوا الجهاد، وقد ارتاعوا من منظرها، فلم يتعودوا هذه الهمجية، ولم يخبروا تلك الوحشية، وهذا ما زادهم ضعفاً، وفتح للصليبيين باب الأمل في تحقيق ما يبغون.

حصل الصليبيون على بعض النصر المؤقت، والظفر القليل، وظنوا أنهم ملكوا البحرين، وقادوا الثقلين، فعاثوا في الأرض الفساد، وعم الخراب كافة البلاد، ولم يحسبوا ليوم كريهة حساباً، وما هي إلا مدة حتى ثاب المسلمون لرشدهم، وأعادوا حساباتهم، فعادوا إلى دينهم سبب عزتهم وقوتهم، فإذا بالصليبيين يرون أنفسهم في البحر فجأة مقهورين مغلوبين على أمرهم. ففي الإسلام قوة كامنة، تتجدد على مدى الأيام، وكلما حاولت قوة باغية أن تعتدي على المسلمين، وإذا بهم يدوسونها، وتخر أمامهم صريعة، مهما بلغت ضخامتها المادية، ومهما طالت المدة، فإن للحق جولة يسحق بها الباطل مهما تمادى في غيه.

عاد الصليبيون إلى الأندلس يحاولون مرة ثانية، فتجددت الحرب، وطال الزمن، وكانت المعارك سجالاً، وإن كان الخط العام يسير في مصلحة الصليبيين، بسبب تفرق المسلمين وتنازعهم. وفي هذا الوقت بالذات بدأ الإسبان والبرتغاليون يعملون ضمن مخططات مدروسة، وتعمهم أوربا مادياً ومعنوياً وبشكل قوي جداً.

هذا من جانب ومن جانب آخر فقد انساح المغول من أواسط آسيا نحو شرقها، فاجتاحوا الصين، ثم اتجهوا غرباً، فدخلوا أرض المسلمين، وانساحوا فيها يخربون، ويدمرون، ويحرقون، ويقتلون ما شاء لهم هواهم،

[1] القرامطة - ص٣١

فازداد ضعف المسلمين وتفرقهم، وكان رقودهمونومهم، وخاصة أن هذا قد جاء بعد الحروب الصليبية والجراح لم تندمل بعد، والحوافز لم تظهر، فجاءت الضربة إثر الضربة فأورثت شيئاً من اليأس أعقبه التفكك والإخلاد إلى الأرض. وسيطر المغول على البلاد كما فتحوا شرق أوربا. فلم يستطع سكان المشرق مساعدة إخوانهم في المغرب لما هم فيه.

توقفت فتوحات المغول بعد هزيمتهم في فلسطين أمام المماليك في معركة عين جالوت عام ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م، وتجزأت دولتهم إلى أجزاء يحكم كلا منها خان مستقل، ولما كانوا في أرض ذات حضارة فقد انصهروا فيها، وتأثروا بها، فدخل خانات غرب آسيا وأواسطها في الإسلام.

وقام تيمور بتزعم التتار الذين ثاروا على حكامهم المغول، وورث التتار امبراطورية المغول الشاسعة بعد حروب طاحنة، ومناورات عظيمة، واحتفظ تيمور لنفسه بلقب أمير، وأقام خاناً من أحقاد جنكيز خان في مدينة سمرقند صورة أثرية ورمزاً لتحالف قديم بين المغول والتتار، وإن كان الأمر مرهوناً كله بيد تيمور.

وبعد موت تيمور عام ٨٠٨هـ - ١٥٠٤ م اختلف الأمراء من بعده على العرش، فتجزأت الدولة الواسعة، واستحالت قوتها إلى ضعف، وبدأت الولايات تنفصل عنها. والمناطق الخاضعة لها تتمرد عليها، بالانفصالتارة وبالاستقلال أخرى، ومنها روسيا التي تحررت من التتار عام ٨٨٥ هـ - ١٤٨٠م على يد أمير موسكو الذي بدأ يسعى لتأسيس دولة قوية له، ومنذ تلك الأيام بدأت هذه الدولة الجديدة تظهر في العالم، وتتضخم تدريجياً.

بعد أن خضعت روسيا للمغول لم يبق منها سوى بعض الإمارات مستقلة، كانت موسكو أهم هذه الإمارات، ولكنها كانت في الوقت نفسه تؤدي الجزية للمغول، وعندما شعر أمراؤها بالضعف الذي أصاب المغول، انتفضوا عليهم، وبدأوا بالتوسع نحو الشرق حيث التتار المسلمون، وحيث لا يمكنهم التوسع نحو الغرب لأن القبائل الجرمانية كانت في تلك الجهات ذات بأس وقوة ولم تستقر بعد.

استطاعت الامبراطورية البيزنطية التي كان مركزها في القسطنطينية والتي لم تكن قد فتحت بعد للعثمانيين - وإن كانت محاطة بهم من كل الجهات ومهددة بالسقوط في كل لحظة - استطاعت هذه الدولة العجوز أن تثير الصقالبة الروس، وأن تنمي فيهم روح الصليبية الحاقدة حيث ينتمي كلاهما للمذهب الأرثوذكسي، وتدعوهم لجمع الأراضي الروسية، وأينائها الأرثوذكس، والانتقام من التتار المسلمين إخوان العثمانيين الذين يهددون عاصمة الدولة البيزنطية ومركز الأرثوذكس ألا وهي القسطنطينية.

لم تمض مدة طويلة حتى زالت الدولة البيزنطية، وفتحت عاصمتها أبوابها للمسلمين واندفع العثمانيون بقوة أكبر نحو أوربا يزيلون قلاعها، ويحطمون حصونها، ويهزمون جيوشها التي تغزوا أمامهم حتى غدوا في وسط أوربا

وجدت أوربا نفسها تقاتل المسلمين من جهتين، الأولى في الشرق ضد العثمانيين، ولا تستطيع الصمود أمامهم حيث دولتهم في أوج قوتها، ولا يزال رجالهم أولي بأس شديد، ولم تفت في ساعدهم الرفاهية، ولم تعبث بهم المدنية. والثانية في الغرب ضد الأندلسيين، وقد أضعفهم التفرق وشتتهم النزاع، وأذهبت ريحهم الأهواء، فاحتمال النصر هنا أقوى، وإمكانية الفوز أكثر، لذا وجهت أوربا اهتمامها نحو الأندلس، ورمت بثقلها هناك. لكنها قررت في الوقت نفسه أن يستمر الروس في حربهم ضد العثمانيين والتتار، وقامت الحروب الصليبية هناك، وتجلت بشكل واضح إبان حكم إيفان الثالث الذي أخرج التتار عام ٨٨٥ هـ - ١٤٨٠ م، ثم إبان حكم إيفان الرابع الذي سمي بالرهيب بسبب ما ألحق بالمسلمين من أذى من قتل وذبح جماعي، وقد استطاع هذا أن يضم المدن التتارية الكبرى إلى إمارته الواحدة تلو الأخرى وهي قازان واستراخان وغيرهما .... وكان شعار الروس آنذاك الاستيلاء على القسطنطينية والمضائق وإعادتها مركزاً للأرثوذكس، وكانوا يثيرون الشعب في هذه الناحية، ويستغلون العاطفة الدينية لديه، ويعتبرون المسلمين جميعاً مسؤولين عن فتحها على يد العثمانيين، لذا كانت حربهم شديدة على التتار فكانوا عندما يستولون على مدينة يذبحون من أهلها ما استطاعوا ذبحه، ومن بقي يجلونه، وكم كان حقدهم شديداً عندما أجلوا سكان مدينة استراخان. وأثناء نزوح هؤلاء السكان انتشر الإسلام على أيديهم على طول الطريق التي سبكوها، ويعتبر الروس أن حربهم مع المسلمين لن تنتهي إلا بعودة القسطنطينية إلى حظيرة الصليب وكقاعدة للمذهب الأرثوذكسي، والاستيلاء على أرض التتار كلها. ومن هنا يظهر أن أصحاب الفكرة الواحدة والعقيدة الواحدة يرتبط بعضهم مع بعض ارتباطاً قوياً، مهما بعدت ديارهم، ونأت أقطارهم، حيث نرى أن العثمانيين المسلمين عندما انتصروا على الدولة البيزنطية النصرانية، قام الصقالبة النصارى ينتقمون من المسلمين التتار، بل اعتبرت دولة روسيا الجديدة نفسها وريثة لتلك الدولة التي زالت، كما نصبت نفسها حامية للنصارى الأرثوذكس، واعتبرت جميع المسلمين في أية بقعة من الأرض مسؤولين عن تقويض الدولة البيزنطية وفتح عاصمتها القسطنطينية.

أما في جبهة الأندلس فقد رأى البرتغاليون ضرورة تطويق المسلمين لإمكانية إحراز النصر، فقام نلك البرتغال حنا الأول بحملة على المسلمين في مراكش، واحتل سبتة، وجعل ابنه هنري حاكماً عليها، لكنهم وجدوا أن التطويق يجب أن يكون عن طريق الوصول إلى بلاد لا يسكنها مسلمون، حتى لا يساعدوا سكان الأندلس بثورات يقومون بها، فكان الانتقال على السواحل الإفريقية الغربي، فكلما وصلوا مكاناً وجدوا فيه قاعدة، وأخيراً وصلوا إلى الرأس الأخضر، ولما وجدوا فيه مسلمين كانت خطوتهم أوسع، فوصلوا الكونغو، وتجاوزوا خط الاستواء، ثم دفعت العواصف (بارتلمي دياز) نحو الجنوب حتى وصل أقصى الجنوب من القارة الإفريقية، وتجاوزها حتى وصل إلى السواحل المطلة على المحيط الهندي، ولما عاد سمى الطرف الجنوبي من القارة برأس العواصف، ولكن ملك البرتغال أطلق عليه اسم رأس الرجاء الصال حيث شعر بأمل في إمكانية تطويق المسلمين، كان هذا والمسلمين لا يزالون مرابطين في الأندلس.

***

ضعف أمر المسلمين في الأندلس كثيراً، واستطاع أخيراً الإسبان والبرتغاليون أن يخرجوهم منها نهائياً، ولم يكتف الإسبان والبرتغاليون بهذا الإخراج بل أرادوا ملاحقة المسلمين في المغرب، وإخراجهم منها، وقد تمكنوا من السيطرة على بعض المراكز على شواطئ البحر الأبيض المتوسط شمال المحيط الأطلسي في غرب بلاد المغرب، وبعد أن استقروا في هذه المراكز شعروا بعدم إمكانية التوغل نحو الداخل لتمكن المسلمين، وبعد أن ذهبت نشوة النصر المؤقت ببعض حقدهم رأوا أن الاندفاع في الحروب، والمغامرات في القتال لا تجدي شيئاً بلا تخطيط.

بدأ التخطيط ورأوا أن عليهم ::

١. معرفة طرق تجارية غير الطرق التي يسيطر عليها المسلمون، وبهذا يصل الأوربيون إلى الشرق، وينافسون المسلمين الذين يفقدون ما يجنون من أرباح من تجارة يسيطرون على طرقها.
٢. عند الوصول إلى الشرق يجب السيطرة على تلك المناطق لإمكانية التطويق والاستعداد التام لقتال المسلمين.
٣. يجب العمل على نشر النصرانية في البلاد التي يدخلونها وحث النصارى على محاربة الإسلام حرباً لا هوداة فيها.
٤. الاتصال بنصارى الشرق وحضهم على العمل معهم لاجتثاث جذور الإسلام.
٥. الاستفادة من كل خلاف بين المسلمين.

كانت البرتغال تتبنى هذه الآراء، وتعد لها، وتسعى إلى تنفيذها، وكانت قد أرسلت بعض اليهود الذين يجيدون العربية إلى مصر حيث أظهروا هناك الإسلام، وتقربوا من الحكام مستفيدين من أوضاعهم المادية الحسنة، فاستطاعوا أن يعرفوا أحوال جيش دولة المماليك الدولة الإسلامية آنذاك، والتي تسيطر على شرق إفريقية وتساعد المسلمين في حربهم ضد الأحباش والنصارى، كما تعرفوا على أوضاع البلاد الداخلية، والتي وسرقوا خرائط البحار، والمعلومات عن الملاحة، وكيفية التخلص من منطقة الهدوء الاستوائي التي بقيت لغزاً يصعب حله لدى الأوربيين حتى تلك الساعة، حيث تهدأ الرياح في المنطقة الاستوائية ولا تتحرك السفن التي تسير على الشراع، وهي المعروفة فقط آنذاك، ولا يمكن التنقل إلا في الربيع شمالاً مع حركة الشمس الظاهرية، وفي الخريف جنوباً مع تلك الحركة. وعندما أخذ اليهود كل ما يريدون انسلوا من مصر عائدين إلى البرتغال، وقدموا ما لديهم للحكومة، وبهذا حصلت البرتغال على ما تريد. وما أن خرج المسلمون من الأندلس، حتى كانت البرتغال قد أرسلت بعثة مؤلفة من ثلاثة مراكب برئاسة فاسكو ديغاما – وكانت قد توافرت لديها كل المعلومات عن المنطقة – فوصل رأس الرجاء الصالح ٩٠٣ هـ – ١٤٩٧ م، والتف حول إفريقية، وسارت سفنه مع تيار موزامبيق شمالاً، واطلع على المراكز الإسلامية شرق زنجبار عام ٧٠٩ هـ – ١٥٠٣ م واستولى على مدينة كيلوا عام ٩١١ هـ – ١٥٠٥ م ، والتقى في مالندي بالرحالة المسلم ابن ماجد الذي دله على طريق الهند. وهكذا يتأكد لنا أن البرتغاليين يريدون الوصول إلى نهاية بلاد الإسلام ليستطيعوا تطويقهم. فإن فسكو ديغاما لم يقترب من سواحل بلاد العرب أو إيران أو سجستان، وإنما اتجه مباشرة إلى الهند، وتمكن من الوصول إلى كالكوتا، ولكنه وجد فيها مسلمين، واستقبل من قبل حاكمها استقبالاً سيئاً، فأضمر الحقد، وعاد إلى البرتغال، ولكنه عاد بعد مدة على رأس حملة جديدة، فاتجه مباشرة نحو كالكوتا، وضربها بالقنابل انتقاماً لزيارته الأولى لها. كان البرتغاليون يرغبون في الوصول إلى آخر ديار الإسلام، ولكنهم يئسوا من ذلك، فما صلوا إلى منطقة إلا وجدوا فيها مسلمين حيث كان المحيط الهندي آنذاك بحراً إسلامياً خالصاً، لذلك فكروا في الانتقام من المسلمين وغزوهم في عقر دارهم في أرض العرب. ويمكن أن نستشعر الروح الصليبية عند البرتغاليين في كل الأعمال التي قاموا بها. فإضافة إلى ما

قام به فاسكو ديغاما من ضرب كالكوتا بالقنابل، فقد أغرق سفينة في خليج عُمان تنقل الحجاج من الهند إلى مكة وعلى ظهرها مائة حاج حيث أعدمهم جميعاً بعد أن فعل بهم الأفاعيل، ثم عاد إلى كالكوتا فأحرق مجموعة من المراكب كانت محملة بالأرز، وقطع أيدي وآذان وأنوف بحارتها. وكان في مدينة كيلوا في شرق إفريقية ثلاثمائة مسجد، دُمِّر معظمها على أيدي البرتغاليين بمجرد دخولهم المدينة، وأعلن البرتغاليون بعد انتصارهم على المماليك في معركة ديو البحرية أنهم سيهدمون الأماكن المقدسة الإسلامية في مكة والمدينة، وأنهم سيزيلون معها آخر آثار الإسلام، وهذا ما جعل العثمانيين يتجهون نحو بلاد العرب يضمونها إلى دولتهم ليقفوا في وجه البرتغاليين.

ونستطيع أن نحكم على الروح الصليبية التي سادت تلك الاكتشافات بل كانت الدافع الأساسي لها من مشروعات (البكويرك) وأقواله وهو الذي خلف فاسكو ديغاما والذي يعود إليه الفضل في توطيد دعائم الامبراطورية البرتغالية، فقد كان يقول : إنه يريد إنجاز مشروعين من مشروعاته قبل موته هما :

١. تحويل مياه نهر النيل إلى البحر الأحمر ليحرم مصر من ري أراضيها، ويخرب شبكة الري التي كانت قائمة آنذاك. ومن المعلوم أن مصر كانت أهم دولة إسلامية وقتذاك من حيث موقعها وعدد سكانها وامتلاكها رقعة كبيرة من الأرض حيث كان يتبعها بلاد الشام وبلاد الحجاز.

٢. تهديم المدينة المنورة في شبه جزيرة العرب، ونبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخذ كنوزه حيث كان يتصور أن ضريحه مليء باللآلئ والمجوهرات شأن الفاتيكان، وسرق رفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، ويجعلها رهينة حتى يتخلى المسلمون عن الأماكن المقدسة في فلسطين.

ولننظر إلى خطابه الذي ألقاه قبل هجومه الثاني على مدينة مالاقا في شبه جزيرة الملايو عام ٩١٧هـ – ١٥١١م حيث يقول (الأمر الأول هو الخدمة الكبرى التي سنقدمها للرب عندما نطرد المسلمين من هذه البلاد، ونخمد نار هذه الطائفة المحمدية حتى لا تعود للظهور بعد ذلك أبداً، وأنا شديد الحماسة لمثل هذه النتيجة... إذا استطعنا تخليص مالاقا من أيديهم فستنهار القاهرة ... وستنهار بعدها مكة)[٢].

وإن انتصار البرتغاليين على مالاقا قد هزّ أوربا طرباً، فقد استدعى ذلك إقامة قداس شكر في عام ٩٢١هـ – ١٥١٥م، وقد قال أحد الخطباء في هذا القداس وهو (كاميلوبورتيون) وأمام ليو العاشر : إن هذا سيسهل استعادة القدس، وفسر كيف أن الصليب وصل إلى أماكن بعيدة، واتهم سلطان مالاقا بأنه مسلم متعصب يكره النصارى، ونادى بحرب صليبية جديدة لاحتلال القدس[٣].

ونشم روائح الحقد من الرسائل المتبادلة بين ملك البرتغال عمانوئيل وملكة الحبشة إليني حيث جاء في رسالة للملكة تقول فيها (بسم الرب والسلام على عمانوئيل سيد البحر وقاهر المسلمين القساة الكفرة، تحياتي إليكم ودعواتي لكم، لقد وصل إلى مسامعنا أن سلطان مصر جهز جيشاً ضخماً ليضرب به قواتكم ويثأر من الهزائم التي ألحقها به قوادكم بالهند[٤]، ونحن على استعداد لمقاومة هجمات الكفرة بإرسال أكبر عدد من جنودنا في البحر الأحمر وإلى مكة أو جزيرة باب المندي، وإذا أردتم نسيرها إلى جدة أو إلى الطور[٥]، وذلك لنقضي قضاءٍ تاماً على جرثومة الكفر، ولعله قد آن الوقت لتحقيق النبوءة القائلة بظهور ملك مسيحي يستطيع في وقت قصير أن يبيد الشعوب الإسلامية المتبربرة، ولما كانت قواتنا متوغلة في الداخل وبعيدة عن البحر الذي ليس لنا فيه قوة أو سلطان فإن الاتفاق معكم ضروري، إذ أنكم أهل بأس شديد في الحرب البحرية)[٦]

يتضح مما سبقأن دوافع الاكتشافات البرتغالية لم تكن وراء المعرفة فمن سار وراء المعرفة كان يمتاز بالصفات الإنسانية وهذا لم نلمسه أبداً خلال دراستنا، كما لم تكن وراء التجارة والحصول على التوابل، فمن كان تاجراً أو غريباً اتصف بالتودد إلى أهل البلاد وحن الصلة بهم، وهذا لم نشعر بد أبداً من خلال ما ذكرنا، كما لم تكن وراء الحصول على الذهب والمال لأن هذا لا يبحث عنه في مكان مجهول. إن كل ما قامت به البرتغال لم يكن يدفعها إليه إلى الحقد الصليبي الأعمى في محاولة لتطويق المسلمين والقضاء عليهم قشاءً تاماً وهذا ما كنا نشعر به ونتوقع نتيجته قبل الانتهاء من عرض الأفكار.

أما إسبانيا وهي الدولة الأقوى والأكثر سكاناً، بل عندما نقول إسبانيا فكأننا نقول البرتغال أيضاً، ونتيجة لهذا كانت تتلقى مساعدات من أوربا أكبر حيث نجد معظم ملاحيها ليسوا من الإسبان، وإنما من باقي دول أوربا التي كانت ترفد هذه المنطقة بكامل إمكاناتها حيث كانت على تماس مباشر مع

[٢] الإسلام في الشرق الأقصى تعريف الدكتور نبيل الطويل

[٣] نفس المصدر

[٤] تعتبر الملكة المسلمين في مصر والهند أمة واحدة وهذا شيء طبيعي، فرابط العقيدة هو الرابط الطبيعي

[٥] الطور يقصد بها طور سيناء والمقصود هنا السويس

[٦] علاقة الدولة المملوكية بالدول الإفريقية لحامد عمار

المسلمين وفي حرب دائمة معهم وإلا لماذا لم تتلق بقية الدول مثل هذه المساعدات؟ ولماذا لم تقم مثل هذه الكشوف وكانت أقوى من إسبانيا والبرتغال اللتين كانتا من دولة الدرجة الثانية أو الثالثة.

كانت مهمة إسبانيا الالتفاف على المسلمين من ناحية الشرق بينما كلفت البرتغال بالتحرك من الجنوب لإتمام عملية التطويق، وكانت قد وصلت إلى مسامع الإسبان فكرة كروية الأرض، وإمكانية الوصول إلى الشرق عن طريق الاتجاه نحو الغرب، كما كانوا على علم أن سفناً مسلمة قد تحركت نحو الغرب ولم تعد، بل تكررت هذه العملية.

أعطت إسبانيا المعلومات اللازمة لبحارتها القادمين إليها من بقية الدول الأوربية، والمدربين على القتال في مدارس خاصة، وقد شحنوا حقداً ضد المسلمين، وملئوا غيظاً من خلال معلومات التاريخ التي ألقيت عليهم مشوهة مغلوطة.

غادر كولومب الجنوي الأصل إسبانيا ومعه ثلاث سفن في ٣ آب ١٤٩٢م (٨٩٨) ، ووصل جزر كناريا (الخالدات)، ومنها تابع رحلته نحو الغرب، وقد أظهر البحارة قلقهم من طول الرحلة، وثاروا على كولومب، وطلبوا إليه الرجوع، ولكنه تمكن بما أثاره في نفوسهم من حماسة ضد المسلمين أن يهدئهم، وأخيراً وصل إلى جزر الآنتيل في أميركا الوسطى في ١٠ تشرين الأول من نفس العام.

وتكررت رحلات كولومب حتى بلغت أربعاً، ولكنه لم يستطع خلالها من الوصول إلى الغاية المطلوبة وهي تطويق المسلمين، لذا ألقي عليه القبض، وأرسل مقيداً إلى إسبانيا، واتهم بالتواطؤ، وأخيراً عفي عنه.

ثم قام أمريكوس فيسبوشي الفلورنسي الأصل برحلة، وعرف أن ما وصل إليه كولومب إنما هي أرض جديدة بالنسبة لأوربا، وبدأت حرب الإبادة بالنسبة إلى سكان أميركا الأصليين، ولا سيما إن وجد بينهم أحد من المسلمين، ونحن نتوقع أن عدداً من المسلمين كان يقيم هناك – كما سنوضح – ولكن طمست الحقائق، وأخفيت المعلومات.

ثم غادر ماجلان إشبيلية في أيلول ١٥١٩م (٩٢٦)، وطاف حول أميركا الجنوبية، ومرّ من أقصى جنوبها من ممر أرض النار الذي عرف فيما بعد باسم مضيق ماجلان، ودخل المحيط الهادي، وسار فيه ثلاثة أشهر وعشرين يوماً، ولم ير خلالها عاصفة ولا يابسة عدا جزيرتين غير مأهولتين، وقد نقصت منهم المؤن، وفتك بهم المرض، وأخيراً وصلوا إلى تلك الجزر التي عرفت فيما بعد باسم جزر الفيليبين تخليداً لملك إسبانيا آنذاك فيليب الثاني.

وقبل قدوم الإسبان إلى تلك الجزر كان أهلها منتظمين في كيانات سياسية صغيرة على رأس كل منها حاكم يدعى (داتو) ويندمج بعضها في كيانات أكبر يحكمها (راجا).

منذ أن وصل ماجلان إلى تلك الجزر فاحت رائحة الصليبية حتى ملأت الجو بحقدها البغيض الذي يحمل معه روائح جثث الموتى الكثيرة التي لاقى أصحابها حتفهم بأيدي الصليبية. فقد اتفق ماجلان مع ملك جزيرة سيبو وكان يدعى (هومابون) على أن يدخل في الديانة الكاثوليكية، مقابل أن يجعله ملكاً على جميع الجزر تحت التاج الإسباني، ورضي (هومابون) بذلك، وظن أن ماجلان يستطيع ذلك ما دام يملك بعض الأسلحة النارية التي جعلته يتكلم من مركز القوة، ويظن نفسه أنه ملك الثقلين.

أخذ ماجلان يعمل على تمكين صديقه من السيطرة على بقية الجزر، وانتقل الإسبان من جزيرة سيبو إلى جزيرة صغيرة بالقرب منها، وكان عليها سلطان مسلم يدعى (لابو لابو) وبمجرد أن علم الإسبان أن الحاكم مسلم ثار حقدهم وصبوا جام غضبهم على السكان حيث طاردوا النساء، وسطوا على الطعام، فقاومهم الأهالي، فأضرم الإسبان النار في أكواخ السكان، وفروا هاربين.

رفض (لابو لابو) المسلم الخضوع لماجلان، وحرض سكان الجزر الأخرى عليه، ورأى ماجلان الفرصة مناسبة لإظهار قوته وأسلحته الحديثة حتى يرهب بقية الأمراء والسلاطين، وذهب مع فرقة من جنوده مزودين بأسلحتهم لقتال (لابو لابو) وتأديبه. طلب ماجلان من (لابو لابو) قائلاً (إنني باسم المسيح أطلب إليك التسليم، ونحن العرق الأبيض أصحاب الحضارة أولى منكم بحكم هذه البلاد)، فأجابه السلطان المسلم (لابو لابو) (إن الدين كله لله، وإن الإله الذي أعبده هو إله جميع البشر على اختلاف ألوانهم). ثم هجم على ماجلان وقتله بيده، وشتت شمل فرقته، ورفض تسليم جثته للإسبان، ولا يزال قبره هناك في جزيرة سيبو شاهداً على ذلك.

تابع نائب ماجلان (دل كانو) الطريق، وعاد إلى إسبانيا عن طريق أندونيسيا – رأس الرجاء الصالح، فوصلها في ١٦ أيلول ١٥٢٢م (٩٢٩) على ظهر سفينة واحدة، وهي التي بقيت من أصل خمس سفن تألف منها أسطول ماجلان عند بدء الرحلة، وصلت وعليها ١٨ راكباً من أصل ٢٦٥ راكباً انطلقوا من إشبيلية.

بعثت إسبانيا أربع حملات متتابعة، ومن سوء حظ هذه الحملات أنها نزلت على شواطئ جزيرة مناناو جنوب الفليبين حيث يكثر المسلمون، فقتل أفراد

الحملات جميعاً لما أبدوا من حقد وروح صليبية، إذ أعلن الإسبان صراحة أنهم جاؤوا لتطبيق سياسة هدفها :

١. توسيع رقعة الممتلكات الإسبانية.

٢. تنصير سكان البلاد التي يحتلونها.ش

ولايخفى على إنسان ما في هذه السياسة من أحقاد وضغائن، وخاصة على المسلمين الموجودين هناك حيث لا يوجد أمامهم أمام تطبيق هذه السياسة إلا الارتداد وإعلان النصرانية أو الموت الذي لا يزال يلاحقهم حتى الآن.

وهكذا نرى أن روح الصليبية لم تكن أقل ظهوراً عند الإسبان منها عند إخوانهم البرتغاليين. وهكذا كانت الدوافع الحقيقية لاكتشافات أوربا الجغرافية هي الروح الصليبية أو فاتحة للحروب الصليبية الجديدة التي عرفت باسم الاستعمار.

.....